(النِّفاق الاجتماعي)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التَّوبة:67].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء:142-143].

وقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ؛ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً))[1]. العَائِرَة: المترددة الحائرة لا تدري أيُّهما تتْبع.

وعَنْ أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((تَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ؛ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ، وَيَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ))[2].

---

[1] () أخرجه مسلم في "صحيحه" رقم (2784).

[2] () أخرجه البخاري في "صحيحه" رقم (3494)، ومسلم في "صحيحه" رقم (2526).

أيُّها الإخوة:

يتظاهر بعض النَّاس بالصِّدق والحبِّ وقلوبهم مملوءة بالحِقْد والحسد والكراهية!

يمدح بعض النَّاس شخصاً ويُكثِرون الثَّناء عليه في حضرته، فإذا تولَّوا عنه سَلَقوه بألسنة حداد!

يتملَّق موظف عند مدير العمل، ويكذب عنده أو عليه إمَّا خوفاً وإمَّا طمعاً!

يهتمّ أناس بمظهَرهم الخارجي قصد التَّأثير الخادع في النُّفوس، ولا يعيرون لعقولهم وأخلاقهم وكفاءاتهم اهتماماً!

يمارس أقوامٌ أعمالاً حسنةً بحضور الآخرين ويمارسون نقيضها في غيابهم!

يبالغ رجال في المديح المزيّف لذوي النُّفوذ من السِّياسيين أو الأعيان تملُّقاً وتزلُّفاً للتمسك بمصدر بئيس للاسترزاق!

يسكتُ امرؤٌ عمَّا يرتكبه المقرَّبون من أخطاء، مصانعةً ومداهنةً!

ينتصر رجل للظَّالم ويؤيِّده ويدعم سلوكه السَّيئ -رغم علمه باعتدائه على حقوق الآخرين- ولا يقدم له النُّصح ولا يبين له خطأه!

تُسمى هذه الأفعال وأمثالها بـ "النِّفاق الاجتماعي"، والنِّفاق من جنس الخداع والمكر، وهو إظهار الخير وإبطان خلافه، وهو أمر شائع في مجتمعنا خاصَّةً في مجال العمل والوظيفة العامَّة أو الخاصَّة، أو في مجال السِّياسة، أو في الأسواق التِّجارية، أو في التَّعامل مع أهل العلم، وبعض النَّاس يمارسه عن جهل في حين يتعمَّده آخرون.

والمصيبة الكبرى أن تجد أهل الرِّياسة والصَّدارة محفوفين بطاقم ممَّن ابتُلي بداء النِّفاق.

قال الحسن البصري رحمه الله: "تولَّى الحجَّاج العراق وهو عاقل كيِّس، فما زال النَّاس يمدحونه حتَّى صار أحمق طائشاً سفيهاً".

ذكر الحافظ ابن رجب أنَّ النِّفاق ينقسم شرعاً إلى قسمين:

نفاق أكبر: وهو أن يُظهِر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كلَّه أو بعضه (نفاق اعتقاد). وهو كفر صراح، بل هو أشدُّ منه، ولذلك توعَّد الله المنافقين بدرجة في جهنَّم لا يصلاها سواهم لعِظَم ضررهم وشدَّة خَطَرهم، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النِّساء:145].

ونفاق أصغر: وهو أن يُظهِر الإنسان شيئاً ويُبطِن ما يخالفه (نفاق العمل). وهو من الكبائر أيضاً، وقد اتَّفق على ذلك الإمامان الذَّهبيُّ وابن حجر.

وفي كلا الحالين –الأكبر والأصغر– فالنِّفاق مذمومٌ وإن كان بعضه شرَّاً من بعض. وحديثنا في النِّفاق الاجتماعي عن النَّوع الثَّاني.

ولعلَّ انتفاع الإنسان بخصم يذكِّره عيوبه يكون أكثر من انتفاعه بصديق مداهن منافق يثني عليه ويمدحه بما ليس فيه ويخفي عنه عيوبه. قال سيِّدنا عمر رضي الله عنه: "رحم الله امرأ أهدى إليَّ عيوبي". واعتزلَ داود الطَّائي النَّاس، فقيل له: لم لا تخالط النَّاس، قال: "ماذا أصنع بأقوام يخفون عنِّي عيوبي".

وخلاف ذلك ما جاء أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه صعد منبر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ثمَّ قال: "يا أيُّها الناس، ما إكثاركم في صُدُق النِّساء وقد كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه وإنَّما الصَّدُقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك. فلو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو مكرمة لم تسبقوهم إليها، فلا أعرفنَّ ما زاد رجل على أربعمائة درهم!!".

ثمَّ نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين، نهيتَ النَّاس أن يزيدوا النِّساء في صدُقاتهم على أربعمائة درهم؟ قال: "نعم". قالت: أمَا سمعتَ ما أنزل الله عزَّ وجلَّ في القرآن؟ فقال: "فأنى ذلك؟" قالت: أما سمعتَ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النِّساء:20]، فقال: "اللَّهم غفراً، كلُّ النَّاس أفقه من عمر".

قال: ثمَّ رجع فصعد المنبر فقال: "أيُّها النَّاس، إنِّي كنت نهيتكم أن تزيدوا النِّساء في صدُقاتهنَّ على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يُعطي من ماله ما أحبَّ، فمَن طابت نفسه فليفعل"[3].

وقد كان الأعرابي يحاور عمر ويناقشه وهو على المنبر، ومن هذا القبيل ما كان الصَّحابة رضوان الله عليهم يتناصحون به إذا رأوا خطأ أحدهم.

أخرج البيهقي في السُّنن الكبرى عن أبي إسحاق قال: (دَخَلَتِ امْرَأَتِي عَلَى عَائِشَةَ وَأُمُّ وَلَدٍ لِزَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ فَقَالَتْ لَهَا أُمُّ وَلَدِ زَيْدٍ: إِنِّي بِعْتُ مِنْ زَيْدٍ عَبْدًا بِثَمَانِمِائَةٍ نَسِيئَةً وَاشْتَرَيْتُهُ مِنْهُ

[3]() أخرجه البيهقي في"السُّنن الكبرى" [7/233].

بِسِتِّمِائَةٍ نَقْدًا؟ فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا: أَبْلِغِي زَيْدًا أَنْ قَدْ أَبْطَلْتَ جِهَادَكَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إِلاَّ أَنْ تَتُوبَ، بِئْسَمَا شَرَيْتَ وَبِئْسَمَا اشْتَرَيْتَ)[4].

الصَّاحب الصَّدوق يذكِّرك إذا نسيت، ويعينك إذا تذكَّرت، ويبصِّرك عيوب نفسك، والصَّاحب السُّوء المداهن يخفي عنك عيوبك، ولا يزال يمدحك حتَّى تعظم عندك نفسك، وربَّما نسيتَ فلم يذكِّرك، وربَّما ذكرتَ فلم يُعِنك.

كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يدعو فيقول: ((**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشِّقَاقِ وَالنِّفَاقِ وَسُوءِ الأَخْلاَقِ**))[5].

قال أحد المفكرين: (ومِن أبرز مواطن النِّفاق الاجتماعي نفاق من يجتمعون حول الرُّموز والمشاهير والمياسير والمتفوقين، فترى لكلٍّ منهم بطانةً يمارسون معه لعبة التَّضليل والتَّملُّق والتَّزلُّف والمديح المزيّف.

فعالم له أتباع يخلعون عليه صفات الكمال ويوهمونه بأنَّه بركة العصر، ووحيد الدَّهر وشبيه البحر، وأنَّ الله نفع بعلمه العباد والبلاد، وأنَّ كتبه وفتاويه ودروسه شرَّقت وغرَّبت، فيصدِّق المسكين ويقع في الفخ ويصاب بداء العُجب والتِّيه.

وسياسي عنده بطانة تَقتات بكلمات الإطراء ومقامات الثَّناء الممجوج، وتوهمه بأنَّه الملهَم وقلب الأمَّة النَّابض ومحبوب الجماهير، وتذكر له أحلاماً منامية كاذبةً تدلُّ على صلاحه وعدله وإيمانه واستقامته، وتخبره هذه البطانة أنَّ العجائز في البيوت يدعون له، وأنَّ الشُّيوخ والأطفال يعيشون على حبِّه، وأنَّ عدله وصل الجميع وبرَّه وَجُوده عمَّ الكلَّ، فيتورَّط في دهاليز العلوِّ في الأرض والتَّكبر على عباد الله والتَّجبر على الأمَّة.

والتُّجار والمشاهير لهم جُلَّاس وسُمَّار يمارسون معهم لعبة الضَّحك على الذُّقون وتمويه الحقائق، ويعطونهم صورةً خاطئةً عن الواقع ليكسبوا الحظوة لديهم، وينالوا شرف صحبتهم، ويبتزوا أموالهم، فإذا غابوا عنهم سلقوهم بألسنة حِدادٍ شِداد، فإذا أتيتَ تريد المكاشفة والصِّدق والوضوح والشَّفافية ضاع صوتك بين الأصوات وصرت ثقيلاً وأصبحت نشازاً، فتضطر رغم

---

[4]() أخرجه البيهقي في"السُّنن الكبرى" [5/330].

[5]() أخرجه أبو داود في "سننه" [1/567]، والنسائي في "سننه" [8/264].

أنفك للمشاركة في حفل تأبين الضَّمير وفي جنازة موت الحقيقة، وهذا يدلُّك على الغثائية التي وصلت إليها الأمَّة.

نحن لا نطلب من النَّاس سوء الأدب مع الرُّموز الدِّينية والسِّياسية والوطنية وسائر النَّاس، ولا التَّجريح ولا التَّشهير، ولكن نطالب بالكفِّ عن هذا النِّفاق الاجتماعي وحجب الحقائق وإدخال هذه الرُّموز في نفق مظلم من الوهم).

أيُّها الإخوة:

كلمة نفاق في اللُّغة مأخوذة من النَّفَق، والنَّفَق هو حفرة تحفرها الحيوانات وتجعل له فتحتين أو أكثر، فإن تمَّت مهاجمتها من فوهة خرجت من الأخرى.

فالمنافق في التَّعريف البسيط: هو شخص حربائي متلون حسب المعطيات والظُّروف والمصالح.

والنِّفاق الاجتماعي ظاهرة مرضية نفسية، حيث يُظهِر الشَّخص عكس ما يبطن، يبدي رأياً خلاف قناعاته، ومتى ما اختلف مظهر المرء عن جوهره، وقوله عن فعله، وسرُّه عن علانيته، دخل في دائرة النِّفاق.

إن انتشار النِّفاق الاجتماعي مردّه إلى أسباب متعددة ومتداخلة، ومنها ضعف الوازع الدِّيني والجهل والبطالة والأمِّية والرَّغبة في الاغتناء السَّريع وتسلق المراتب وانتشار الرَّشوة والوساطة والمحسوبية، وضعف العدالة الاجتماعية، وفساد القضاء، وشعور المرء بالقهر...، وكلُّها أسباب تزكي ارتفاع معدلات النِّفاق الاجتماعي. على الرُّغم من أنَّ السَّبب الرَّئيس للنِّفاق نفسيٌّ، فالمنافق هو شخص مهزوز نفسياً بسب معاناته من حاجات خاصَّة، أو نتيجة لتربيته على ثقافة الخنوع والكذب وتزييف الحقائق، كما أنَّه شخص مصاب في الغالب بعقدة النَّقص والخوف المرضي.

انطلاقاً ممَّا سبق، فإنَّ علاج هذا المرض الفتاك يكون بـ:

1) تعزيز الدَّافع الدِّيني عند الفرد والجماعة, واستشعار رقابة الله لنا في أمورنا كلها.
2) العمل على نفي الأسباب الآنفة.
3) النَّظر إلى من يمارس النِّفاق الاجتماعي نظرة ريبة وانتقاص تأديباً اجتماعياً له، ولعلَّ هذا -والله أعلم- واحد من معاني إنزال الله تعالى سورة المنافقين يفضح الله فيها المنافقين، بغْيَة رَدْعهم والتَّحذير منهم.

4) التَّدرب على إسداء النُّصح لجميع النَّاس، فالدِّين النَّصيحة، وليس العيب أن تظهر للنَّاس ما أخطؤوا به، بل العيب أن نسكت عن أخطائهم حتَّى يقعوا في المهالك.

5) الحرص على أن يكون مظهرنا موافقاً لحقيقتنا.

6) عدم المبالغة في المدح أو الذَّم.

أيُّها الإخوة:

ختاماً: ما الفرق بين المجاملة والنِّفاق الاجتماعي؟

إنَّه الصِّدق، فالمجاملة القائمة على الصِّدق بعيداً عن الإساءة للدِّين أو للآخرين محمودة مبرورة، لكنَّها إن مُزجت بالكذب وسُوء الخُلق وإيصال الشَّرِّ للعباد صارت نفاقاً.

والحمد لله رب العالمين